

الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم (مكائنه - أسبابه - مظاهره)

إعداد

أ. محمد فاروق الهباش
ماجستير التفسير وعلوم القرآن

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

مقدمة

الحمد لله الذي أثار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور، وهدىً ورحمةً للمؤمنين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فقد حظي موضوع الإعجاز في القرآن الكريم على اهتمام العلماء قديماً وحديثاً، وذهب أكثرهم إلى القول بتعدد وجوه إعجازه، فهناك الإعجاز البياني، والإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، وهناك نوع آخر يتعلق بالأثر الذي يتركه القرآن في نفوس سامعيه ألا وهو الإعجاز التأثري، فما إن يقرأ الإنسان بعض الآيات أو يستمع إليها إلا ويشعر في نفسه وقعاً خاصاً، ويحسُّ في قلبه تأثيراً خاصاً، وسلطاناً عجيماً.

وقد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على هذا الموضوع وإبرازه، مبيناً تعريف الإعجاز التأثري، وأقوال العلماء حوله، ومعدداً أهم أسبابه ومميزاته ومظاهره، وكذلك دوره في الدعوة إلى الله تعالى.

أهداف البحث:

- ١- التأكيد على موضوع إعجاز القرآن الكريم، ودحض شبهات المنكرين له.
- ٢- إبراز أهمية الإعجاز التأثري من خلال أقوال العلماء حول هذا الموضوع.
- ٣- بيان مظاهر الإعجاز التأثري على الإنسان وغيره من المخلوقات.
- ٤- إبراز أهمية هذا النوع من الإعجاز في الدعوة إلى الله تعالى.

منهج الدراسة:

- ١- اتبع الباحث المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي.
- ٢- توثيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة من مصادرها الأصلية في حاشية البحث.
- ٣- الاعتماد على الأحاديث النبوية الواردة في الصحيحين أولاً، وبيان درجة الحديث إذا كان في غيرهما.
- ٤- الرجوع إلى المصادر الأصلية والكتب الحديثة المتعلقة بموضوع البحث.

خطة البحث:

- تقع الخطة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي:
- المقدمة: وتشمل أهداف البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.
- المبحث الأول: الإعجاز التأثيري وأهميته، وفيه ثلاثة مطالب:
- المطلب الأول: تعريف الإعجاز التأثيري لغة واصطلاحاً.
- المطلب الثاني: أقوال العلماء في الإعجاز التأثيري.
- المطلب الثالث: مميزات الإعجاز التأثيري.
- المبحث الثاني: أسباب الإعجاز التأثيري، ويشتمل على مطلبين:
- المطلب الأول: أسباب متعلقة بالقرآن.
- المطلب الثاني: أسباب متعلقة بالإنسان.
- المبحث الثالث: مظاهر الإعجاز التأثيري، ويشتمل على مطلبين:
- المطلب الأول: مظاهر الإعجاز التأثيري على الإنسان.
- المطلب الثاني: مظاهر الإعجاز التأثيري على غير الإنسان.
- الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات، وثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول
الإعجاز التأثري وأهميته
المطلب الأول
تعريف الإعجاز التأثري

١- تعريف الإعجاز لغة:

العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء، وعجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز أي: ضعيف، وأعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والعجز نقيض الحزم، وأصله التأخر عن الشيء، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة.^(١) وما سبق يتضح أن الإعجاز في اللغة مشتق من العجز الذي يدل على الضعف والقصور وعدم القدرة.

٢- تعريف الإعجاز اصطلاحاً:

عرفه الجرجاني بقوله: "الإعجاز في الكلام: هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق".^(٢) وعرفه الزرقاني بقوله: "إعجاز القرآن: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به".^(٣) إذاً الإعجاز في الاصطلاح يعني عجز البشر وضعفهم وعدم قدرتهم على معارضة القرآن الكريم.

٣- تعريف التأثري لغة:

التأثري نسبة إلى التأثير، وهو مشتق من الأثر، والأثر: بقية الشيء، والجمع آثار وأثور، والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء: ترك فيه أثراً، وأثرت فيه تأثيراً: جعلت فيه أثراً وعلامة فتأثر أي قبل وانفعل، وأثر الشيء: حصول ما يدل على وجوده.^(٤)

(١) مقاييس اللغة، (٤/٢٣٢)، كتاب العين، الفراهيدي، (١/٢١٥)، المفردات في غريب القرآن، ص ٥٤٧.

(٢) التعريفات، ص ٣١.

(٣) مناهل العرفان، (٢/٣٣١).

(٤) ابن منظور لسان العرب، (٤/٥)، الحموي، المصباح المنير (١/٤)، الأصفهاني، المفردات في غريب

إذاً التأثير في اللغة يعني ما يحصل نتيجة أمر معين وما يترتب على هذا الأمر مما يدل على وجوده، كالانفعالات والمشاعر.

٤- تعريف الإعجاز التأثيري اصطلاحاً:

عرفه الدكتور فضل حسن عباس بقوله: "هو التأثير العظيم لهذا القرآن على النفوس هيبية وحلاوة، ورغبة ورهبة، ولا يعرف الكتاب في الدنيا كلها له من الأثر على تاليه ومستمعه كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه، ولا يفهمون ألفاظه نجدهم يتأثرون بهذا القرآن".^(١)

وعرفه الدكتور عصام زهد بقوله: "أن القرآن الكريم له تأثير بأسلوبه على سامعيه من خلال سلطانه القاهر العجيب الذي يوتر في القلوب المؤمنة والقلوب الكافرة على حد سواء".^(٢) وعرفه الدكتور محمد عطا بقوله: "وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به".^(٣)

تعريف الباحث: هو الأثر الذي يتركه القرآن الكريم على النفس البشرية، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر والعربي وغير العربي والعالم وغير العالم والصغير والكبير، وما يترتب على ذلك من الشعور بالهيبية والروعة والطمأنينة والجاذبية نحو القرآن الكريم.

المطلب الثاني

أقوال العلماء في الإعجاز التأثيري

تكلم العلماء قديماً وحديثاً حول الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، وسأقتصر في هذا البحث على ذكر ثلاثة من العلماء القدماء وثلاثة من المعاصرين.^(٤)

- (١) د. فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم ص ٣٤٥.
- (٢) د. عصام زهد الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم، مجلة الجامعة الإسلامية، مج ٢٤١١، سنة ٢٠٠٣م.
- (٣) د. محمد عطا الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية الكويت، مج ١٣ ع ٣٦ سنة ١٩٩٨.
- (٤) من العلماء الذين ذكروا هذا الوجه: الإمام الزركشي في البرهان (١٠٦/٢)، والإمام السيوطي في "معترك الأقران" (١٨/١)، والشيخ الزرقاني في "مناهل العرفان" (٤٠٥/٢)، والشيخ محمد سعيد البوطي في "من روائع القرآن" ص ١٥٦، والشيخ محمد الغزالي في "تظرات في القرآن الكريم"، ص ١٠٥.

أولاً: الإعجاز التأثري عند القدماء

١- الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ):

يُعَدُّ الإمام الخطابي أول من أشار إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز حيث قال: "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوراً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين ضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالة وكفرهم إيماناً".^(١)

فالإمام الخطابي قد ذكر أثر القرآن الكريم على النفس، وأن هذا الأثر له جانبان داخلي متمثل في الشعور باللذة والهيبة والروعة، وأثر خارجي متمثل في ترك العقيدة الفاسدة والإيمان بالعقيدة الصحيحة.

٢- الإمام الباقلائي (ت: ٤٠٣هـ):

وقد تحدث عن هذا الوجه في كتابه إعجاز القرآن فقال: "وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس، ما يذهل ويبهج، ويفلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماك ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة".^(٢)

نجد أن الإمام الباقلائي عبر عن تأثير القرآن (بالوقع في القلوب والتمكن النفوس)، وما يحدثه هذا الوقع من انفعالات مختلفة.

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٧٠.

(٢) إعجاز القرآن (١/٢٧٦).

٣- القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ):

وقد ذكر هذا الوجه من وجوه الإعجاز في كتابه الشفا بحقوق المصطفى فقال: "ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعترهم عند تلاوته لقوة حاله وإنامة خطرته، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستنقلون سماعه ويزيدهم نفوراً كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكرهتهم له... وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيئته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به... ويدل على أن هذا شيء خص به أنه يعترى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره".^(١)

ونلاحظ من كلام القاضي عياض أنه جعل تأثير القرآن يصل إلى الإنسان العامي الذي ليست له دراية بعلم التفسير وفهم معاني القرآن الكريم، وهذا أمر واقع وحاصل بالفعل وقد حدث لكثير من الناس.

ثانياً: الإعجاز التأثري عند المعاصرين

١- محمد فريد وجدي:

حيث عدّ الإعجاز التأثري من أهم وجوه الإعجاز، بل جعله مقدماً على الوجه البلاغي، ورفض أن تكون البلاغة أكثر النواحي سلطاناً على النفس فيقول: "حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته فكتبوا في ذلك فصولاً إضافية الذبول، وبعضهم خصها بالتأليف، وإنما وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر النواحي سلطاناً على النفس، فإنّ للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حدّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال عليه، في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها، وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيد تأثيراً، ولكنه تسلط على النفس والمدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى، الذي كان للقرآن قلوب الملحنين".^(٢)

(١) الشفا بحقوق المصطفى، القاضي عياض (١/٥٢٩).

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، (٧/٦٧٦)، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.

وأوضح أن القرآن يؤثر في النفوس تأثير الروح في الجسد، وجعل آثار هذا الإعجاز يدرکها الجميع سواء العالم باللغة أو الجاهل بها.^(١)

والباحث يتوافق مع الشيخ محمد فريد وجدي في التأكيد على أهمية الإعجاز التأثري ومكانته، ولكنه يخالفه في كونه مقدماً على الإعجاز البياني البلاغي؛ وذلك لأنه الوجه الذي وقع به التحدي للبشر كافة، واتفق عليه العلماء القدامى منهم والمعاصرين، فلا ينبغي أن يقدم عليه وجه آخر.

٢ - سيد قطب:

يعد سيد قطب رائد نظرية التصوير الفني في القرآن، والتي لها - كما سنذكر لاحقاً - دور كبير في إبراز جوانب الإعجاز التأثري في القرآن الكريم، بما اشتملت عليه من تشبيهات وإيحاءات وإضافة الحياة والحركة على الجمادات.

وقد عبر سيد قطب عن الإعجاز التأثري بعدة مصطلحات منها: سحر القرآن، حيث يقول: "سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره منهم غشاوة... وقصة إسلام عمر بن الخطاب وقصة تولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي، وكلتاها تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتبينان - في اتجاهين مختلفين - عن مدى هذا السحر القاهر، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون".^(٢)

واعتبر أن تأثير القرآن لا يقتصر على العرب فقط بل يتعداه إلى غير العرب فيقول: "إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري.. إن له سلطاناً عجباً على القلوب ليس للأداء البشري حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً".^(٣)

٣ - الدكتور فضل حسن عباس:

وقد ذكر ذلك في كتابه إعجاز القرآن الكريم في الفصل الخامس منه، تحت عنوان الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي، وهل هما وجه واحد أم وجهان مستقلان؟ ثم يميل إلى مصطلح الإعجاز الروحي.^(٤)

(١) المصدر السابق (٦٧٩/٧).

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١١.

(٣) المرجع السابق (١٧٨٦/٣).

(٤) انظر: إعجاز القرآن الكريم ص ٣٤٣.

ولا تعنيا كثيراً المصطلحات بقدر ما تعنيا حقيقتها ومدلولاتها، فكلها تشير إلى الأثر الذي يحدثه القرآن الكريم، فهو يلامس الروح والنفس والجسد ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً. ثم يعرف الدكتور فضل عباس الإعجاز الروحي بقوله: "هو ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن العظيم على النفوس هيبه وحلاوة، ورغبة ورهبة، ولا يعرف الكتاب في الدنيا كلها له من الأثر على تاليه ومستمعه كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه، ولا يفهمون ألفاظه نجدهم يتأثرون بهذا القرآن".^(١)

وقد جعل هذا الوجه من الإعجاز تابعاً للوجه البياني، ورفض أن يعده وجهاً مستقلاً.^(٢) ويميل الباحث إلى كونه وجهاً مستقلاً كما سيتضح ذلك من خلال الحديث عن مميزات الإعجاز التأثري.

وهكذا نجد أن العلماء -رحمهم الله تعالى- على اختلاف العصور قد بينوا أهمية هذا الوجه المهم من وجوه الإعجاز، وما له من دور عظيم في التأثير على النفس الإنسانية سواء أكانت مسلمة أم كافرة عالمة أم جاهلة.

المطلب الثالث

مميزات الإعجاز التأثري

١- وجه مستقل من وجوه الإعجاز القرآني:

فوجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة متعددة كما قال بذلك معظم العلماء، والإعجاز التأثري أحد هذه الوجوه، وقد ذكره العلماء القدامى والمعاصرون، وبينوا أهميته وذكروا العديد من الأدلة لإثبات تأثيره على الإنسان وغير الإنسان، وهو وجه له مميزات خاصة به تختلف عن باقي وجوه الإعجاز.

ومن العلماء من عده وجهاً تابعاً للإعجاز البياني، ولكن ما يرجحه الباحث أنه وجه مستقل وليس تابعاً للإعجاز البياني، وليس أدل على ذلك من تأثر غير العرب وعوام الناس من النساء والأطفال، والقصص والحوادث التي تثبت وقوع التأثير على أولئك أكثر من أن تحصى وسيتم الحديث عنها في المبحث الثالث من هذا البحث.^(٣)

(١) إعجاز القرآن الكريم ص ٣٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٤٩.

(٣) من الذين قالوا بأن الإعجاز التأثري وجه مستقل أستاذنا الدكتور عصام زهد في بحث بعنوان: الإعجاز التأثري في القرآن الكريم ص ١٣٣، وكذلك الدكتور أحمد شكري في كتاب: بحوث في الإعجاز والتفسير في رسائل النور ص ١٦١.

٢ - قائم في كل زمان ومكان:

من المميزات التي يتميز بها هذا النوع من الإعجاز كونه قائم في كل زمان ومكان، فإن المتتبع لتاريخه يجده قد بدأ من زمن نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وامتد على فترات نزول القرآن، وتأثر به أهل مكة والمدينة، والنجاشي وأساقفته في الحبشة ووفد نصارى نجران، ولا يزال هذا التأثير قائماً إلى عصرنا هذا على اختلاف الأماكن والبلاد، وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة؛ لأن بقاءه مرتبط ببقاء القرآن الكريم.

٣ - شموله:

يتميز الإعجاز التأثري بشموله، فقد شمل العرب وغير العرب، والإنسان وغير الإنسان وحتى الجماد. (١)

٤ - يخضع لتأثيره العالم وغير العالم:

فالإعجاز التأثري هو وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، هذا الكتاب العظيم الذي يسر الله تعالى فهمه لجميع الناس على اختلاف عقولهم ومداركهم حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال الدكتور فضل عباس: "ولا يعرف كتاب في الدنيا كلها له من الأثر على ناليه ومستمعه كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه ولا يفهمون ألفاظه نجدهم يتأثرون بهذا القرآن". (٢)

وهذه الخاصية قد انفرد بها الإعجاز التأثري عن باقي وجوه الإعجاز، فالإعجاز البياني مثلاً لا يدركه إلا من له علم واسع بالقرآن وعلومه واللغة العربية وأساليبها، وكذلك الحال مع الإعجاز العلمي، أما الإعجاز التأثري فيدركه ويخضع لسلطانه العالم وغير العالم.

٥ - دوره البارز في الدعوة إلى الله تعالى:

فكم أسلم من كافرين وكم آمن من ملحدين وكم اهتدى من ضالين لما سمعوا آيات الله تتلى، فإذ بهم يتغير حالهم، وتدمع عيونهم، وتشهد ألسنتهم بصدق هذا الكتاب العظيم وأنه كلام الله تعالى، كما حدث مع عمر بن الخطاب والجبير بن مطعم رضي الله عنهما، وكم دخل الإسلام من علماء الغرب وعامتهم ومشاهيرهم وحتى من قساوستهم ورهبانهم لما استمعوا إلى كتاب الله تعالى. (٣)

(١) سيتم الحديث عن هذه المظاهر في المبحث الثالث من هذا البحث ص ٢٤.

(٢) إعجاز القرآن الكريم ص ٣٤٥.

(٣) انظر هذا البحث ص ٢٩.

المبحث الثاني

أسباب الإعجاز التأثري

المطلب الأول

أسباب متعلقة بالقرآن

قبل أن نتعرف على أسباب الإعجاز التأثري لابد أن نتساءل: ما هو السر الذي دفع الوليد بن المغيرة إلى قول مقالته المشهورة عن القرآن: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى عليه)، وما السر الذي جعل الجبير بن مطعم يقول: (كاد قلبي أن يطير) لما سمع آيات من سورة الطور، وما السر الذي دفع كبار سادة قريش كأبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق لاستماع القرآن الكريم لثلاث ليال متواصلة، رغم تعاهدهم في كل ليلة ألا يعودوا لاستماعه^(١)، فما السر الذي جعل كل هؤلاء يتأثرون كل هذا التأثير بالقرآن الكريم؟

يجيبنا سيد قطب -رحمه الله- على ذلك بقوله: "إن في هذا القرآن سرّاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحسن بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعّبها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللّغة؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟ ذلك سر مودع في كلّ نصّ قرآنيّ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبّر والنّظر والتّفكير في بناء القرآن كله".^(٢)

إن ذلك التأثير العجيب للقرآن الكريم على النفوس راجع إلى عدة أسباب منها:

أولاً: أسلوب القرآن الكريم

فعلى الرغم من أن القرآن الكريم قد جاء وفق قواعد اللغة التي يعرفها العرب إلا أنه قد جاء وفق "نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، ويقوم في

(١) سيتم الحديث عن ذلك في المبحث الثالث من هذا البحث.

(٢) في ظلال القرآن، (٦/٣٩٩).

طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم، وله أسلوب خاص به لا تجد منه عند أيّ فن من الفنون العربية المعهودة، ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً؛ وللنظم أعراب ووزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبيّنة ومعروفة، والقرآن ليس على أعراب الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعة، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذلك".^(١)

ولذلك لما استمع العرب إلى آيات القرآن الكريم لم يتمالكوا أنفسهم من الإعجاب والدهشة والروعة مما سمعوا، من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق الحروف في الكلمات، والكلمات في الجمل، ما أذهلهم عن أنفسهم، وأيقنوا أنه لا سبيل إلى معارضته، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم.^(٢)

وقد تميز أسلوب القرآن الكريم بعدة ميزات منها:^(٣)

١ - طريقة نظمه:

يقصد بنظم القرآن: "طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم".^(٤)

ويعتبر موضوع النظم من المواضيع المهمة في بيان إعجاز القرآن الكريم، ولذلك اهتم به العلماء، وألفوا الكتب والرسائل في بيانه، وعدّه بعضهم من أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.^(٥)

-
- (١) من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي ص ١١١، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- (٢) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ص ١٣١، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.
- (٣) يراجع في ذلك: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص ١٣١، والنبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، ص ١٤٣ وما بعدها، ومناهل العرفان للزرقاني (٣٠٩/٢)، ومن روائع القرآن لمحمد سعيد البوطي ص ١١١، وعلوم القرآن الكريم لنور الدين محمد عتر ص ٢١٠.
- (٤) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص ١٣٣.
- (٥) من أبرز القائلين بالنظم الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) والذي يعتبر صاحب نظرية النظم واشتهر بها، وكذلك الإمام الخطابي في كتابه (بيان إعجاز القرآن).

وتتضح أهمية النظم في إظهار إعجاز القرآن الكريم من خلال التأثير النفسي على القارئ أو المستمع، حيث يتوخى الناظم أقرب المسالك وأوضحها إلى صوغ الجمال بتفهم مقاديره ومواقعه وكيفية نسجه وترتيبه، ومن ثمّ يضمن التأثير الكامل والفوز عند قارئه أو مستمعه. (١)

٢- إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

فالخطاب البشري إما أن يخاطب العقل وحده أو العاطفة وحدها، وقلما يجمع بين الجانبين، وأما "أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية". (٢)

٣- خطاب العامة وخطاب الخاصة:

فأسلوب القرآن الكريم قد خاطب الناس على مختلف مداركهم وعقولهم، والجميع يفهم النص على حسب مستواه العقلي وتحصيله العلمي، فالعالم يفهم من النص أمراً معيناً، وغيره يفهم أمراً آخر وهكذا.

ومن الأمثلة على هذه الخاصية قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] فهذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر، ولكن تفاوت الناس في فهمها كل حسب إدراكه لمعناها، فالعامي يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، والمتأمل من علماء العربية يُذرك من وراء ذلك أن الآية تدلُّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة؛ فلذلك سماها سراجاً، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه لذلك سُمي منيراً، أما العالم الفلكي الحديث فقد يفهم منها أن إضاءة الشمس ذاتية كالسراج، بينما نور القمر مجرد انعكاس، وكل هذه المعاني صحيحة، فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة، وبذلك تكون خطاباً مفيداً لأضراب الناس كلهم. (٣)

(١) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منير سلطان، ص ١٥٢، الطبعة الثالثة ١٩٨٦، منشأة المعارف، الإسكندرية.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٩.

(٣) انظر: من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، ص ١١٥، بتصريف.

ثانياً: التصوير الفني: (١)

يعد التصوير الفني من أبرز وأهم أسباب الإعجاز التأثري في القرآن الكريم، وذلك لما اشتمل عليه من إichاءات وتشبيهات وإضافة للحركة على الجمادات، الأمر الذي يجذب القارئ أو المستمع لآيات القرآن الكريم ويؤثر فيه كل تأثير.

ويوضح سيد قطب مفهوم التصوير الفني بقوله: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل". (٢)

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

ولنتأمل فيما قاله سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات حيث يقول: "وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفسنا ونحن نتابع السياق والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب، وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية بين الوالد والمولود كما يقاس بمداه في الطبيعة، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان، وإنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصامتة وفي نفس الإنسان، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن". (٣)

(١) يعتبر الشهيد سيد قطب مؤسس هذه المدرسة وأستاذها ورائدها، وقد ظهر ذلك جلياً في كثير من كتبه ومؤلفاته

مثل تفسيره: في ظلال القرآن، وكتابه: التصوير الفني في القرآن، وكتابه: مشاهد القيامة في القرآن.

(٢) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٦، الطبعة الشرعية السادسة عشر ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار الشروق، القاهرة.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/١٨٧٨).

فلا شك أنّ هذه الخاصية الهامة تؤثر تأثيراً عظيماً في النفس، وتثقل القارئ أو المستمع لآيات الله إلى عالم آخر من الجمال والمتعة والجاذبية؛ ليعيش هذه المعاني الرائعة مع مزيد من آيات الله تعالى.

ثالثاً: نظام القرآن الصوتي (الإيقاع الموسيقي):^(١)

تميزت اللغة العربية عن غيرها من اللغات بنظام صوتي فريد، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، وهذه الخاصية في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة، إلى تركيب مفرداتها على حدة، إلى تركيب قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد، فحروفها وأصواتها واسعة الأفق، متميزة المخارج والصفات، ولكل حرف منها صوت له وظيفة خاصة في إبراز المعنى المراد، وليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية، فهي لغة إنسانية ناطقة تستخدم جهاز النطق الحي أحسن استخدام يهدي إليه الافتتان في الإيقاع الموسيقي.^(٢) وقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية مراعيّاً ذلك الإيقاع الموسيقي الذي تميزت بها لغة العرب، ولذلك لما سمعوا آياته تتلى شعروا بالروعة والجمال وتأثروا به كل تأثير، وأدركوا أن لا قبل لهم بمعارضته.

ويعلل الرافعي سر ذلك بقوله: "فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجْنة في السمع"^(٣) ويقصد بالإيقاع الموسيقي: اتساق القرآن وانتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغماته واتصالاته وسكناته اتساقاً عجيباً وانتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوِي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور.^(٤)

-
- (١) اختلف العلماء في نسبة هذا المصطلح للقرآن الكريم، فمنهم من أنكره تنزيهاً له عن الموسيقى المعروفة وما يصاحبها من لهو وطرب، ومنهم من أجازته وذلك من باب الكشف عن وجه جديد من وجوه الجمال في القرآن الكريم، وهذا هو المقصود من العنوان الكشف عن (الجمال الصوتي) في أسلوب القرآن الكريم.
- (٢) انظر: للغة الشاعرة، عباس العقاد ص ١١-١٣ بتصرف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م، القاهرة.
- (٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٥٠.
- (٤) مناهل العرفان (٣٠٩/٢).

فهذا التناسق العجيب المدهش -والذي لا يقدر عليه البشر- بين الحروف وصفاتها، والكلمات وأوزانها، والجمل ومواقعها، ليؤثر تأثيراً كبيراً في الإنسان ويشد انتباهه بصورة رائعة.

والإيقاع الموسيقي في القرآن يتألف من عدة عناصر: من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة، ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة، ومن اتجاهات المد في الكلمات، ومن اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات، ومن حرف الفاصلة ذاته.^(١)

يقول الدكتور عبد الله دراز: "دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغاناتها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريداً وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجوّد هذا التجويد".^(٢)

المطلب الثاني

أسباب متعلقة بالإنسان

وهي أسباب تعود لقارئ القرآن أو مستمعه تساعد على التأثر بالقرآن ومنها:

١- الإخلاص لله تعالى:

فكلما كان القارئ للقرآن أو المستمع له مخلصاً لله تعالى كان ذلك أدعى لحصول التأثر والتدبر، قال عمر بن الخطاب: "لقد أتى علينا حين، وما نرى أن أحداً يتعلم القرآن يريد به إلا الله تعالى، فلما كان ههنا بأخرة، خشيت أن رجالاً يتعلمونه يريدون به الناس وما عندهم، فأريدوا الله تعالى بقراءتكم وأعمالكم".^(٣)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله وملائكته والصالحون ولهابهم الناس، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس".^(٤)

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٣٩).

(٢) النبأ العظيم ص ١٣٣.

(٣) أخلاق حملة القرآن، الأجرى ص ٧٠.

(٤) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (١/٦٥٥).

٢- التدبر وحضور القلب:

فإنه تعالى ما أنزل كتابه للتلاوة فقط، بل ليتدبره الناس وليتفكروا به، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ولا يأتي التدبر إلا بحضور القلب حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، قال الزمخشري في تفسير الآية: "لمن كان له قلب: أي قلب واع، لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له، وإلقاء السمع: الإصغاء، وهو شهيد: أي حاضر بفضولته، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب".^(١)

وليشعر أنه مخاطب بكل آية، قال ابن القيم: "إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خاطب منه لك على لسان رسوله".^(٢)

فاذا استشعر المسلم أنه المخاطب بكلام الله تعالى فسينتأثر به حتماً.

٣- البعد عن موانع التأثر:

ومن هذه الموانع ارتكاب الذنوب والمعاصي، فهي من أعظم ما يصدُّ القلب عن التأثر، وتشكل حاجزاً يمنع من التأثر بعظمة القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ومن الذنوب التي تمنع التأثر بالقرآن الكريم قسوة القلب والكبر والغرور واتباع الهوى والتعلق بالدنيا والإعراض عن الآخرة وغيرها من أمراض القلوب.

قال ابن قدامة: "وليتخلَّ التَّالِي عن موانع الفهم، ومن ذلك: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصِّدأ، ومعاني القرآن مثل الصُّور التي تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإمطاة الشهوات مثل جلاء المرأة".^(٣)

(١) الكشاف (٤/٣٩١).

(٢) الفوائد ص ٣.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، ص ٥٣-٥٤.

وقال الشيخ البوطي: "ولا يتجلى الإعجاز إلا لقلب لم تخنقه أغشية الكبر والعناد، فأقبل إلى القرآن يتامله متجرداً عن أي عناد أو أسبقية إلى ضلالة عاهد نفسه أن لا يتحول عنها، فأما من قد ران على قلبه الكبر والعصيان، ومرّ بالقرآن على هذه الحال فقد لا ينتبه إلى شيء مما ذكرنا ولا يتأثر به، وإن نبهه المنبهون واستناره الناصحون".^(١)

٤ - حُسْنُ التَّلَاوَةِ:

فقد أمرنا الله تعالى بترتيل القرآن فقال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، والترتيل مستحبٌ للتدبر والتفهم، وأقرب إلى التوقير والاحترام، وأشدُّ تأثيراً في القلب.^(٢)

وقد حثَّ النبي ﷺ على التَّغْنِيِّ بالقرآن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ"^(٣) وهذا الترتيل للقرآن والتغني به يُعِين على التدبر والتأثر من قبل القارئ والمستمع.

قال ابن كثير: "المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد للطاعة".^(٤)

وكلما كان القارئ حسن الصوت كان وقع تأثير القرآن أكبر، ولعل هذا ما جعل النبي ﷺ يأمر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقراءة القرآن عليه لما يتمتع به من صوت جميل وتلاوة متقنة، ودليل ذلك قوله ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ"^(٥).

٥ - فهم معاني الآيات:

فمن أعظم أسباب التأثر بالقرآن الكريم هو فهم معانيه، وذلك للوصول إلى معرفة مراد الله تعالى، وفي المقابل فإن الجهل بمعاني القرآن يصرف عن تأثر القلب به.

وصفة الوقوف عند المعاني: "أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممّا قصر عنه فيما

(١) من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، ص ١٦١.

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي ص ٩١.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم: ٧٥٢٧ (١٥٤/٩).

(٤) فضائل القرآن ص ١٩٥.

(٥) سنن ابن ماجه (٤٩/١) حديث رقم ١٣٨، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٨٠/٥)

مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب".^(١)

ولذلك لما استمع الجبير بن مطعم رضي الله عنه إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسْتَطِرُونَ﴾ فقال: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ".^(٢)

فقول الجبير هذه العبارة عند سماع هذه الآية "لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه".^(٣)

ومن أعظم العلوم المعينة على التدبر: اللغة وأساليبها، قال ابن القيم: "وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان".^(٤)

٦- ترديد الآيات:

فترديد الآيات من الأسباب الباعثة على حصول التأثير بالقرآن الكريم، فالآية مثل التمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها.^(٥)

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة؛ فقد قام النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة بآية فظل يرددتها حتى أصبح وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].^(٦)

وعن عبادة بن حمزة قال: دخلتُ على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو.^(٧)

قال ابن القيم: "وهذه كانت عادة السلف، يردّد أحدهم الآية إلى الصبح".^(٨)

(١) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي (٣٦٩/١).

(٢) صحيح البخاري (١٤٠/٦).

(٣) فتح الباري (٦٠٣/٨).

(٤) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ص ٩.

(٥) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٤٧١/١).

(٦) رواه ابن ماجة في سننه (٣٧٢/٢)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٨/١).

(٧) التبيين في آداب حملة القرآن (ص ٨٥).

(٨) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧).

٧- تهيئة الجو المناسب عند القراءة:

فالتأثر بالقرآن يضعف مع وجود العوامل المشتتة لذلك، كالأصوات المرتفعة وصوت التلفاز والجلوس بجانب ما يشغل المرء ويلهيه، فلا بد أن يكون هناك جو مناسب لإعمال العقل والفكر والتدبر في آيات الله تعالى، ولا بد كذلك من توقيير كتاب الله تعالى وعدم الانشغال عن التلاوة بأمر قد تؤثر على التدبر والتأثر، قال النووي: "ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين الفارئين مجتمعين فمن ذلك اجتناب الضحك واللغظ والحديث في خلال القراءة إلا كلاماً يضطر إليه".^(١)

(١) التبيان في آداب حملة القرآن" ص (٩٢)

المبحث الثالث
مظاهر الإعجاز التأثري
المطلب الأول
مظاهر الإعجاز التأثري على الإنسان

أولاً: تأثير القرآن على المؤمنين

لقد جعل الله تعالى لكتابه العظيم تأثيراً بالغاً في نفوس المؤمنين، فما إن يستمعوا إلى آياته إلا ويظهر التأثير واضحاً عليهم، قال تعالى واصفاً حال المؤمنين عند سماعهم آيات القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، قال سيد قطب: "فهم أنقياء شديداً الحساسية بالله؛ ترتعش وجداناتهم حين تلتى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، ففقيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً".^(١)

١- تأثر النبي ﷺ بالقرآن الكريم:

ولقد كان النبي ﷺ أعظم من تأثر بالقرآن الكريم، كيف لا وهو عليه أنزل، فعن عبد الله بن مسعود، قال: "قال لي النبي ﷺ: "اقرأ عليّ" قلت: "اقرأ عليك وعليك أنزل؟" قال: "فإني أحب أن أسمع من غيري" فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: "أمسك" فإذا عيناه تدرقان.^(٢)

قال العيني: "بكاؤه إشارة منه إلى معنى الوعظ لأنه تمثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمرته بتصديقه والإيمان به وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن".^(٣)

وعن عبد الله بن الشخير قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وفي صدره أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ من البكاء".^(٤)

(١) في ظلال القرآن، (٤/٤٣١٤)

(٢) صحيح البخاري، (٤٥/٦) حديث رقم ٤٥٨٣.

(٣) عمدة القاري (٥٧/٢٠).

(٤) المستدرک على الصحيحين، الحاكم (٣٩٦/١)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه".

هكذا كان حال النبي ﷺ عند سماعه للقرآن الكريم، خشوع وتدبر وبكاء، وهذا كله من شدة تأثره بآيات الله تعالى.

٢- تأثر الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم شديدي الاقتداء بمعلمهم الأول النبي ﷺ، فكانوا يتلون القرآن الكريم ويتأثرون بآياته ويؤثر فيهم أعظم تأثير.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان لا يملك نفسه عند تلاوة آيات الله تعالى، وقد وصفته ابنته عائشة رضي الله عنها بأنه رجل رقيق أسيف، فعندما مرض النبي ﷺ أمر أن يصلي أبو بكر بالناس فقال: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ" قَالَتْ عَائِشَةُ: "إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ".^(١)

وأما حال القرآن مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان عجباً، فقد أسلم لما سمع بعض الآيات، وكان شديد التأثر بالقرآن الكريم سريع البكاء من تلاوته.

فعن عبد الله بن شداد أنه قال: "سمعت نشيج^(٢) عمر، وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]."^(٣)

وعن الحسن قال: "كان عمر بن الخطاب يمر بالآية في ورده فتخنقه، فيبكي حتى يسقط، ويلزم بيته اليوم واليومين حتى يعاد يحسبونه مريضاً".^(٤)

فانظر كيف أثر القرآن في حياة عمر رضي الله عنه، فبعد أن كان يضرب به المثل في شدة عداوته للنبي ﷺ ولكتاب الله ﷻ وكان يقال: والله لا يُسلم (عمر) حتى يسلم حمار الخطاب، إذ به يخرم مغشياً عليه بعد سماعه لبعض آيات الله تعالى، فلا شك أن ذلك لعظمة وروعة القرآن الكريم وشدة تأثيره في النفوس.

وعن تأثير القرآن في حياة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيقول القاسم بن محمد بن أبي بكر: "كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧] وتدعو وتبكي وتردها،

(١) صحيح البخاري (١٣٦/١) حديث رقم ٦٧٨.

(٢) النشيج: صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٢/٥).

(٣) صحيح البخاري (١٤٤/١) باب إذا بكى الإمام في الصلاة.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي (٩٥/٧) رقم ٣٤٤٥٧.

فقت حتى مللت القيام، فذهبت الى السوق لحاجتي ثم رجعت فاذا هي قائمة كما هي، تصلي وتبكي". (١)

ويحدثنا الجبير بن مطعم رضي الله عنه عن إسلامه فيقول: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ (٣٧)﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ". (٢)

فما هو السر الذي جعل الجبير يقول هذه العبارة؟ وما هي القوة التي كاد أن يطير قلبه من صدره بسببها؟ لا شك أنها قوة تأثير القرآن الكريم.

ثانياً: تأثير القرآن على المشركين

لم يقتصر تأثير القرآن الكريم على المؤمنين فحسب، بل تعداه إلى تأثيره في نفوس غير المؤمنين من الكفار والمشركين.

ولشدة تأثير القرآن في نفوسهم خافوا على أنفسهم وعلى أتباعهم من الإسلام، فأوصى بعضهم بعضاً بعدم الاستماع للقرآن الكريم والتشويش على قارئه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فيا ترى ما سبب هذا الخوف من سماع القرآن الكريم؟ ولم هذا الجهد الكبير في صدّ الناس عن سماع آيات الله تعالى؟ والجواب أن ذلك يرجع للتأثير العجيب القاهر للقرآن العظيم على النفوس، والذي إن دلّ على شيء فإنما يدل "على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوها محمد ﷺ أو أحد أتباعه السابقين، فتتقاد إليهم النفوس، وتهوي إليهم الأفئدة، ويهرع إليهم المنقون، فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير الذي هو أدلّ من كل قول على عمق التأثير". (٣)

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي (٣١٩/١).

(٢) صحيح البخاري (١٤٠/٦).

(٣) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ١٤.

ومن أمثلة تأثير المشركين بالقرآن الكريم ما يلي:

١ - شهادة الوليد بن المغيرة:

فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، ثم قال قولته المشهورة: "قَوْلَ اللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالشُّعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِشُعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَّلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُنْمِرٌ أَعْلَاهُ مُعْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ".^(١)

فعندما نستمع لمثل هذه الشهادة من ألد أعداء الإسلام وهو عالم خبير باللغة وفنونها فإن ذلك يدل على علو منزلة القرآن الكريم، وشدة تأثيره على سامعيه.

٢ - استماع سادة قريش للقرآن الكريم:

ومن ذلك ما رواه ابن اسحق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا القرآن من رسول الله ﷺ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ثم تفرقوا.^(٢)

إن ما قام به قادة المشركين من استماعهم للقرآن الكريم رغم تعاهدهم ألا يعودوا لاستماعه لأكبر دليل على تأثير القرآن في نفوسهم، ورغبتهم الشديدة في استماع آياته؛ لقوته العجيبة وأسلوبه البليغ.

٣ - تزاحم النساء والأطفال لاستماع القرآن الكريم:

لما أراد أبو بكر ﷺ الهجرة لقيه ابن الدغنة فأدخله في جواره، فابتدى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتوقف عليه نساء المشركين وأبنائهم، يعجبون

(١) مستدرك الحاكم، (٢/٥٥٠)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه".

(٢) سيرة ابن إسحاق ص ١٨٩.

وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك دمه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناعنا ونساعنا.^(١)

قال ابن حجر في معنى يتقصف: "أي يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر وأطلق يتقصف مبالغة".^(٢)

هذا الازدحام الشديد لاستماع القرآن الكريم من قبل نساء المشركين وأولادهم أفزع المشركين؛ لأنهم خشوا على أزواجهم وأبنائهم أن يتأثروا بالقرآن الكريم فيسلموا، وهذا يدل على علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب.

ثالثاً: تأثير القرآن على غير العرب

إن روعة القرآن الكريم وحلاوته وشدة تأثيره في النفوس لم تقتصر على العرب الذين يستطيعون بحكم معرفتهم اللغة العربية وأساليبها أن يتذوقوا تلك المعاني العظيمة، بل تعدى ذلك إلى غير العرب الذين ربما لم يسمعوا كلاماً عربياً من قبل.

فمن الأمثلة على ذلك ما حدث مع النجاشي ملك الحبشة لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب آيات من سورة مريم فبكى النجاشي وبكى معه أساقفته وقال: "إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة الذي جاء بها عيسى".^(٣)

ومن الأمثلة المعاصرة إسلام المغني البريطاني (كات ستيفنز) والذي أصبح اسمه بعد إسلامه (يوسف إسلام) حيث يقول: "لما قرأت القرآن أيقنت أنه ليس من صنع البشر، ووجدت التوحيد فيه يتماشى مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، هزني تعريف القرآن بخالق الكون، فقد اكتشفت الإسلام عبر القرآن وليس من أعمال المسلمين، أيها المسلمون كونوا مسلمين حقا حتى يتمكن الإسلام من الانتشار في العالم كله، فالإسلام هو السلام لكل العالم".^(٤)

(١) انظر: صحيح البخاري (٩٨/٣).

(٢) فتح الباري (٢٣٤/٧).

(٣) انظر: سيرة ابن إسحق، ص: ٢١٥.

(٤) عظماء أسلموا، د. راغب السرجاني، ص: ٣٢٢.

ومن ذلك أيضاً ما حدث مع أحد الدعاة المسلمين وقد دعي لإلقاء محاضرة في أحد مساجد لندن، فوضع منظمو المحاضرة شريطاً من القرآن في مكبر الصوت لجمع الناس، وإذ بجموع غفيرة تأتي إلى المسجد، وقد جلسوا لاستماع القرآن وكأن على رؤوسهم الطير، ولكن بمجرد أن أغلق مكبر الصوت استعداداً لأداء المحاضرة أخذ الناس بالانصراف، فسأل إمام المسجد عن هذه الظاهرة، فقال: ما نكاد نفتح مكبر الصوت في أي وقت على القرآن الكريم حتى يتوافد الناس على المسجد ويجلسوا خاشعين رغم أنهم لا يفقهون القرآن، ولكنه يأخذهم بسحره وروعة لفظه وموسيقاه، فإذا انتهت التلاوة قاموا كما جاءوا.^(١)

والأمثلة على إسلام غير العرب بسبب سماعهم للقرآن الكريم أكثر من أن تحصى، وما ذلك إلا لقوة تأثير القرآن الكريم عليهم.^(٢)

المطلب الثاني

تأثير القرآن على غير الإنسان

أولاً: تأثير القرآن على الملائكة

وأما عن تأثير القرآن الكريم على الملائكة فليس أدل عليه من قصة الصحابي الجليل أسيد بن حضير وهو يقرأ القرآن، "إِذْ جَالَتْ فَرْسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشَيْتُ أَنْ تَطَّأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْتَالُ السُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوْحِ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْيَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ" قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أُيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ" قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أُيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ" قَالَ: فَانصرفتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشَيْتُ أَنْ تَطَّأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْتَالُ السُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوْحِ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ."^(٣)

(١) من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. خليفة العسال، ص: ٥٥، بتصرف.

(٢) يراجع في ذلك: كتاب قالوا عن القرآن تأليف: عماد الدين خليل، كتاب علماء ومشاهير أسلموا تأليف:

نايف منير فارس، وكتاب مشاهير أسلموا: لماذا أسلموا تأليف: د. عبد الله البلتاجي.

(٣) صحيح مسلم (٥٤٨/١).

فاستماع الملائكة للقرآن دليل على روعته وقوة جاذبيته التي جذبت الملائكة لاستماع آياته، من خلال هذه التأثير القوي والسلطان القاهر.

ثانياً: تأثير القرآن على الجن

وكما كان للقرآن التأثير البالغ والواضح على الإنسان، كان له ذلك التأثير على الجن أيضاً، وهذا ما ذكره القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

يقول سيد قطب: "ويرسم النص مشهد هذا النفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن، ويصور لنا ما وقع في حسهم منه، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾، وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾، وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إيلاغه والإنذار به، وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإيلاغه للآخرين في جد واهتمام".^(١)

ثالثاً: تأثير القرآن على الجمادات

إن الأثر البالغ الذي يتركه القرآن على سامعيه لم يقتصر على الأحياء من الإنس والجن والملائكة، بل شمل أيضاً الجمادات.

يقول تعالى واصفاً حال الجبال مع القرآن الكريم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) في ظلال القرآن، (٦/٣٢٧٣).

قال الشوكاني: "لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيتَه مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً، أي: منشققاً من خشية الله سبحانه حذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيبيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب".^(١)

وإذا كان هذا حال الجبال الجامدة الشديدة فمن باب أولى أن يتأثر الإنسان العاقل، قال ابن كثير: "فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله ﷻ فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه".^(٢)

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مَنِيرًا؟ قَالَ: "إِنْ شِئْتُمْ"، فَجَعَلُوا لَهُ مَنِيرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَصَاحَتْ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَتْنُ أُنَيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ. قَالَ: "كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا".^(٣)

فإذا كان هذا حال الجمادات غير العاقلة مع القرآن الكريم، فكيف يكون حاله مع الإنسان المكلف العاقل؟ فالأصل أن يكون الإنسان أكثر تأثراً وتدبراً وخشوعاً مع القرآن الكريم.

(١) فتح القدير، (٢٤٦/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧٨/٨).

(٣) صحيح البخاري (١٩٥/٤).

الخاتمة

في ختام هذا البحث المتواضع أحمده الله تعالى أن أعانني على إتمامه، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من زلل فمن نفسي والشيطان. وقد توصلت إلى بعض النتائج والتوصيات وهي على النحو الآتي:

أولاً: النتائج

- ١- يُعدّ الإعجاز التأثري وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وهو وجه مستقل قائم بذاته.
- ٢- حظي الإعجاز التأثري باهتمام العلماء قديماً وحديثاً وهذا يدل على مكانته العالية.
- ٣- وضع تعريف للإعجاز التأثري وهو: الأثر الذي يتركه القرآن الكريم على النفس البشرية، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر والعالم وغير العالم والصغير والكبير، وما يترتب على ذلك من الشعور بالهيبة والروعة والطمأنينة والجاذبية نحو القرآن الكريم.
- ٤- يتميز الإعجاز التأثري بالعديد من الميزات والخصائص، منها: شموله للعرب وغيرهم، وللعالم وغير العالم، وأنه قائم في كل زمان ومكان.
- ٥- لا يقتصر تأثير القرآن الكريم على الإنسان فحسب، بل تعداه إلى غير الإنسان من الملائكة والجن، وحتى للجماد أيضاً.
- ٦- يُعدّ النبي ﷺ أعظم من تأثر بالقرآن الكريم، ثم يأتي بعده صحابته الكرام ﷺ أجمعين.
- ٧- إن اعتراف سادة قريش بعلو منزلة القرآن هو نتيجة لتأثرهم بهذا الكتاب العظيم.
- ٨- هناك مجموعة من الأسباب التي تساعد في تأثير القرآن الكريم، منها ما هو متعلق بالقرآن نفسه كروعة أسلوبه والتصوير الفني والإيقاع الموسيقي، ومنها ما هو خارج عن القرآن وهي أمور تتعلق بالقارئ أو المستمع له كالإخلاص والتدبر وحسن الفهم واجتناب موانع التأثر، وحسن الصوت والتلاوة.
- ٩- إبراز العديد من مظاهر الإعجاز التأثري، منها ما يظهر أثره على الإنسان: المؤمن والكافر، والعربي وغير العربي، ومنها ما يظهر أثره على غير الإنسان.
- ١٠- يعدّ الإعجاز التأثري مجالاً خصباً للدعوة إلى الله تعالى، وقد ساهم في دخول الكثيرين في الإسلام من غير العرب والمسلمين.

التوصيات:

- ١- أوصي الباحثين بمواصلة البحث في كتاب الله تعالى، واكتشاف كنوزه العظيمة التي لا تنتفد، والبحث عن وجوه جديدة من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.
- ٢- الاستعانة بالإعجاز التأثري في مجال الدعوة إلى الله تعالى، فقد أثبت نجاحه وفاعليته في هذا المجال الهام.
- ٣- العمل على ترجمة الأبحاث الخاصة بمواضيع الإعجاز القرآني إلى لغات متعددة؛ حتى يتعرف العالم كله على عظمة القرآن الكريم.
- ٤- تأسيس مركز للإعجاز في الجامعة الإسلامية، يكون قاعدة للبحث في كتاب الله تعالى، ودعم الباحثين والمتخصصين في هذا المجال.
- ٥- ضرورة التعاون من أجل إعادة ربط المسلمين بكتاب الله تعالى، والعمل على زيادة تأثرهم به، وانعكاس ذلك في حياتهم قولاً وعملاً، ففيه النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

- ١- الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٢- أخلاق حملة القرآن: محمد بن الحسين الأجرى، تحقيق: د. غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٣- إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الفرقان - الأردن.
- ٤- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: منير سلطان، الطبعة الثالثة ١٩٨٦، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- ٦- إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.
- ٧- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٨- التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، الطبعة: الثالثة مزينة ومنقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- ٩- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤ هـ.
- ١٠- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، الطبعة الشرعية السادسة عشر ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، دار الشروق، القاهرة.
- ١١- التعريفات، الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- ١٢- تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩٧م.
- ١٣- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٤- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- ١٥- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، ضمن سلسلة منشورات ذخائر العرب .١٦
- ١٦- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.
- ١٧- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ١٨- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.
- ١٩- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ٢٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني، محمد ناصر الدين مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى.
- ٢١- سنن ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ٢٢- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٢٣- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

- ٢٤- الشفا بحقوق المصطفى: القاضي عياض، دار الفيحاء - عمان، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧هـ.
- ٢٥- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٢٦- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٧- صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث-القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ٢٨- عظماء أسلموا، د. راغب السرجاني، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، أقلام للنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة.
- ٢٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٣٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ٣١- فتح القدير: الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٣٢- فضائل القرآن، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٣٣- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ.
- ٣٤- الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ٣٥- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة: السابعة عشر، ١٤١٢هـ.
- ٣٦- كتاب العين، الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

- ٣٧-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- ٣٨-لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
- ٣٩-اللغة الشاعرة، عباس العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م، القاهرة.
- ٤٠-مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ٤١-مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٤٢-المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٤٣-مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥.
- ٤٤-المصباح المنير، الحموي، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٤٥-المعجزة الكبرى القرآن: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- ٤٦-مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- ٤٧-مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤٨-المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
- ٤٩-مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٥٠-من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- ٥١- من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، خليفة حسين العسال، مطبعة الفجر الجديد، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- ٥٢- مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.
- ٥٣- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٥٤- نظرات في القرآن الكريم، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ١٩٩٦م.
- ٥٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ثانياً: الدوريات

- ١- الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم، د. عصام زهد، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد ١١، العدد ٢، سنة ٢٠٠٣م.
- ٢- الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، د. محمد عطا، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويت، المجلد ٣١، عدد ٣٦، سنة ١٩٩٨.